نـافـذة

يهون كل شيء

في شهر حزيران من عام ١٩١٨، والحرب العالمية الأولى تقترب من نهايتها، نشطت الأوساط الوطنية في سورية لتدارس مستقبل الوطن. في هذا السياق كان اللقاء بين أحد الرجالات الوطنية في سورية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والكوماندور هوغارث عميد جامعة اوكسفورد المنتدب للعمل في المكتب العربي في القاهرة. هذا فضلاً عن تدارس مستقبل الوطن مع شخصيات سياسية دولية كان لدولهم دور بارز في التأثير الفعال في سير الحرب.

ونعلم أن الأوساط السياسية الوطنية كان لها دورها في سياق شرح قضايانا، بدءاً من تاريخ انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس في سنة ١٩١٣ وحتى تاريخ الاستقلال في سنة ١٩٤٦. ونعلم أيضاً أن هذا العمل كان في أوجه بالتحديد في منذ قيام الحرب العالمية الأولى وحتى نهايتها في سنة ١٩١٨ وذلك نظرا لانتقال الأوضاع في المنطقة العربية، عموما، من حالة إلى أخرى، وتوقع حدوث تغييرات جذرية فيها.

وفي سياق التغييرات التي طرأت على المنطقة، كان العرب يرمون من خلالها إلى تذكير الدول الحليفة بما قطعته على نفسها من وعود وعهود حول منح البلاد العربية حق تقرير المصير بعد الحرب مباشرة. ومن صور التذكير ما تمخض عن الاجتماع الذي جرى بين الشهبندر وهوغارث على خلفية التصريح الذي عرف، بـ«العهد البريطاني للسوريين» وفيه تأييد بريطانيا لمطالب السكان حول الاستقلال.

ومع أن شيئاً مما ورد في العهد المذكور لم يتحقق، فقد واصل الوطنيون سيرهم على درب المقاومة والنضال وكان شعارهم دائما: من أجل استقلال الوطن ووحدة أرضه وكرامة الشعب يهون كل شيء. وهذا ما أثبته تاريخ النضال في سورية، بعد عقود طويلة من النضال المرير ضد المستعمرين، القدامى منهم والجدد. وأيضاً هذا ما أثبتته السنوات السبع الماضية حتى اليوم وسورية تخوض معركة الوجود ضد تتار العصر، دفاعا عن استقلال الوطن ووحدة أرضه وكرامة مواطنيه مدنيين وعسكريين، مهما كان ثمن انتصاره على أعدائه باهظا، ومهما طال الزمن وصولا إلى ساعة النصر.

لكل هذه الاعتبارات، وحرصاً على مكونات الصمود والتضحيات التي قدمها شعبنا على مدى عقود طويلة، من الجدير أن تكون وسائل إعلامنا المرئي والمسموع والمقروء، حاضنة لعوامل جعل أبناء شعبنا ينتصرون على أعداء الوطن.

وفي هذا السياق يندرج واجب الوسائل التي أشرت إليها، لبيان أهمية قراءة التاريخ واستيعاب دروسه بغض الطرف عن القول إن التاريخ يعيد نفسه ولا مجال لقدرة إنسان الواقع على تغيير مساره. إنها ثقافة الوعي التي ينبغي علينا أن نعمقها في نفوس أبنائنا وأحفادنا ليكون الغد ملك أيدينا.

د. اسكندر لوقا

فقه الصورة والتراسل بين المخيلة والعين

د. نذير العظمة: الموضوع يستحق دراسة شاملة لعلاقة الشعر بالفنون بمنهجية مقارنة

سوسن صيداوي

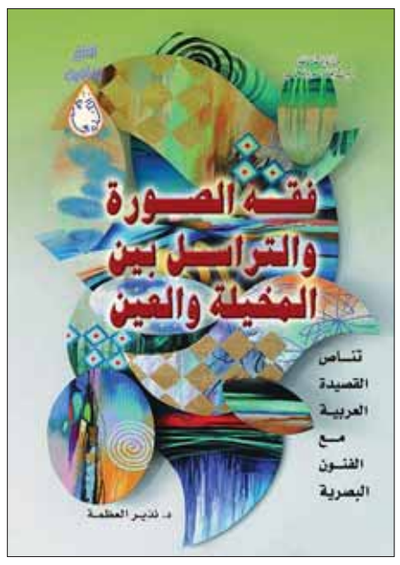

دراسة رائدة في الصورة والتراسل بين المخيلة والعين في الشعر العربي، وإذا كان المهتمون بعلم الجمال قد درسوا من قبل كل فن من الفنون المنفرد فإن المؤلف–د. نذير العظمة في كتابه«فقه الصورة والتراسل بين المخيلة والعين»الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب–يدرس العلاقات والسمات والثيمات المشتركة بين مجمل الفنون البصرية والسمعية والتأثيرات المتبادلة فيما بينها عبر تراسل الحواس والتناص وتحول السمعي إلى بصري، والبصري إلى سمعي، في سياق الكشف عن فضاء جمالي مميز ومشترك. الجدير بالذكر بأن الكتاب من القطع الوسط ومقسّم إلى ستة أبواب وصدر بواقع ثلاث مئة وثلاثين صفحة، وسنتوقف عند بعض النقاط.

> الإبداع كما المخيلة يحرك التراكم الكمي لموروثات الذاكرة إلى نصوص نوعية متميزة رغم حضورها المستقل واستقلالها

استجابة العين

اتبع د. نذير العظمة في دراسته في بحثه «فقه الصورة والتراسل بين المخيلة والعين»على العلاقة ما بين المخيلة والعين، والعين المخيلة في شعرنا العربي، ونظر إلى عين الشعراء في سياق مشترك متأملا كيف أسهمت العين كأداة رؤية في إغناء القصيدة وكيف أثارت القصيدة المخيلة حيث يقول في مقدمة بحثه: «استجابت العين إلى هذا الإثراء فابتكرت القصيدة اللوحة، واللوحة القصيدة في تناص جدلي بين الشعر والفنون البصرية. ليس بذي قيمة مركزية أن نحن نظرنا إليه مجزءاً، ويبرز ثروة كاملة إن نحن رأيناه في سياق تراكمي عبر العصور. إن عين أبي نواس وعين المتنبي وعين البحتري وعين ابن حمديس وعين شوقي وأبي ريشة وإبراهيم ناجي بما تركته من نصوص تتوسل فيها المخيلة العين والعين المخيلة جديرة باهتمام الدارسين في حيز خاص ومستقل». ويتابع الباحث هنا بأنه يندرج في هذا الإطار نقوش الزخارف والرسوم الأوابد عند العقاد والمطران والمعلوف، مشيراً إلى أن الحركة بين ما تراه العين وتحوله إلى كلمات تتشكل فيها القصائد المنظومة عن صور مرسومة أو بالعكس، ويدهشنا بغناه حين تتحول القصائد إلى لوحات أو اللوحات إلى قصائد، الأمر يدهشنا بتنوعه وغناه واستمراريته عبر مختلف العصور كأنما يصدر عن جهاز متشابه إن لم يكن مشتركاً للمخيلة في الشعر والرسم والنقش وغيرها من الفنون.

الرسم والشعر

في المؤلف يشير الباحث بأن المعنيين بعلم الجمال ربما يقعون على منطقة مغفلة هنا إن هم درسوا الفنون لا بشكل منفرد ومستقل بل في العلاقة المتبادلة ما بينها والحواس وقنواتها المشتركة وتداخلها كذلك دراسة المخيلة في مؤثراتها وتأثراتها بهذه الحواس من خلال إنجازات الفنون جميعاً التي يمكن أن نستكشف فيها فضاء جمالياً مميزاً ومشتركاً، متابعا «القصائد تصبح لوحات واللوحات كما النقوش والصور تصبح قصائد، فالجدل ما بين الرسم والشعر والشعر والرسم حقيقة واضحة من خلال ما أحصيناه من نصوص وما وقعنا عليه من إنجازات وإبداعات فنية في هذا الخصوص، والموضوع يستحق دراسة شاملة لعلاقة الشعر بالفنون من خلال هذه المنهجية المقارنة، إلا أننا ركزنا على تحولات البصري إلى سمعي والسمعي إلى بصري ونوهنا بباقي الحواس والفنون الأخرى أحياناً لأسباب تتعلق بالمنهج ونظام الدراسة ومساحتها». مضيفاً بأنه درس القصيدة الناتجة عن اللوحة والنقش والصورة بشكل أساسي ودرس عدداً آخر من اللوحات المستوحاة من القصائد عند الفيصل كفنان وشاعر، كنموذج استكشافي لدراسة منهجية مقارنة من هذا النوع يمكن أن تتكرر عند فنانين آخرين من دون أن ينسى المبدع المؤسس جبران خليل جبران.

في التراسل

هنا يعتبر الباحث د. نذير العظمة بأن المحرك الأول لرؤية العين واستجابة المخيلة في سياق التجربة الشعرية والفنية التي توظف أحياناً البعد الجمالي لغايات نفعية. ويضيف بأن الإبداع كما المخيلة يحرك التراكم الكمي لموروثات الذاكرة إلى نصوص نوعية متميزة في فنون رغم حضورها المستقل واستقلالها المميز فهي تصدر عن أرضية جمالية ومشتركة «والتلاقح بين الفنون الذي اصطلح عليه بالتراسل والمقابلات هو شأن حضاري كالتمازج أو التداخل في الأجناس الأدبية، ويقوم بوظيفة الابتكار والتوليد من خلال تلقيح فعالية فن ما بفعالية فن آخر.... فالرسم بالتراسل مع الشعر وبالعكس وكذلك الأمر في باقي الفنون كالموسيقا والمسرح والشعر والأسطورة والرقص والإيمائي والبالية والتشكيلي الحديث. والتراسل لا يقوم على التشبيه كما في وصف الأطلال والكتابة والوشم الذي جمع من شواهده ناصر الدين الأسد الشيء الكثير في كتابه الشعر الجاهلي، لكن الطلل والكتابة والوشم تظل علامات تتوسلها الذات للتعبير عن ذاتها، فالذات هي الطرف المهيمن في حين الموضوع هو علامة لها. فالتراسل يقوم على وجود طرفين يتم بينهما التراسل عبر المحاكاة والتصوير وأحياناً الاختراع والتوليد ولاسيما في التشكيل، ومن هنا كان التراسل أدق بلاغة فهناك مسافة بين الذات والموضوع قد يلغيها تقمص الذات وتحولاتها إلا أن فعالية التراسل تتركز على تبادل الخبرات والأشكال بين فنين من خلال حساسية الإبداع الجمالية، فالموضوع يظل قائما ومنفصلا عنها في أشكال فنية متعددة تتراسل من خلال الحواس».

المخيلة والعين

يقول الباحث إن المخيلة والعين هما الوسيلة الأساسية لهذا التراسل بين الفنون لذلك كان لابد لنا من تتبع الوظائف المشتركة لهما في فقه الصورة وتراسل الحواس وتمازجها وتبادل الأفكار والخبرات والأشكال.

مصطلح القصيدة البصرية

يرى د. العظمة بأن القصيدة البصرية هي ابتداع سريالي إلا أنها وجدت عصرها الذهبي مع أصحاب البديع في شعرنا العربي، فابتكروا لها أشكالا متنوعة تخاطب العين للوهلة الأولى لكنها من حيث البنية تقوم على تداخل الشعر والرسم كما تقوم على اكتشاف طاقات الشكل الجمالية في الحرف العربي الأمر الذي اصطلح عليه النقاد بالحرفية فلوحة الحرف العربي لا تقصد أكثر من إثارة بهجة العين كسبيل لتوهج الوجدان واختلاج الفكر.

المسرح جعلني أفكر بصوت أعلى فهو بحد ذاته صرخة

هيثم طفيلي لـ«الوطن»: الكتابة نوع من السعي نحو الكمال ففي الورق نستطيع ألا نجامل ونكتب بلا كذب

سارة سلامة

من مسرحية «تفل قهوة»

متنقلاً بين الشعر والرواية وكتابة المسرح ليتجه مؤخراً إلى الكتابة الدرامية، إلا أن البداية كانت من خلال مذكرات طفل حالم بكل براءته وصدقه وشغفه بحياة تفهمه أكثر، واستطاع أن يحول المذكرات إلى رواية استغرق في كتابتها ٩ سنوات متفرقات، ويحكي فيها عن الحب والمرأة والوطن، وكان هيثم الطفيلي يكتشف نفسه مجدداً في «نور شام.. مذكرات مدينة»، إلى أن أخذته مصادفة قد تكون الأجمل في حياته إلى كتابة مسرحية بعنوان «تفل قهوة»، ليكون أول كاتب سوري يكتب للمسرح باللهجة اللبنانية وهذا ما اعتبرته الصحافة اللبنانية ربما تهكماً لتكتب اسمه بالخط العريض، ولأنه اختار أن يكون متمرداً على كل شيء اندفع إلى ابتكار مونولوج كوني بين آدم وحواء يحاكي البشرية ويتحدث فيه عن كل شيء فينحاز لحواء مراراً كما ينصاع لآدم، ويرسم المرأة في كلماته محاولاً عابثاً أن يحقق لها العدل لا المساواة.

وعلى الرغم من أنه استمد من سماء قريته الواسعة حوش الصالحية القابعة في الغوطة الخيال الكبير، فإنه يعشق دمشق التي يراها كعيون الأنثى لا تشيخ أبداً وتشهيه على الكتابة في كل مرة.

اليوم هيثم يحكي لـ«الوطن» عن نشأته وبداية رحلته وما قدمه وما يحضره في هذا الحوار..

• بداية حدثنا عن بدايتك مع الكتابة ومن كان يقرأ لك؟
في الفترة الأولى لم أسمح لأحد بقراءة كتاباتي إلا أن المرحلة الجامعية دمرت هذه الحواجز ولطالما شاركت بمجلة الحائط والرسائل التي اضطررت أن أكتبها لأصدقائي والأمسيات الشعرية التي قمت بها على فشلها تنظيمياً إلا أنها كانت صادقة.

• بعدها انحزت للرواية، لماذا؟
وبعد انتهائي من المرحلة الجامعية في عام ٢٠٠٧ بدأت بكتابة الرواية حيث كان لدي وقت فراغ أكبر، وانتهيت منها في العام ٢٠١١، ونشأت الفكرة على شكل مذكرات كتبتها ولكني أصررت أن تبقى مسودة وتطبع كمسودة، والآن عندما أقرؤها أشعر بالاختلاف الكبير مع أسلوبي اليوم ومع أني أستطيع تعديلها إلا أنني تركتها وحافظت عليها كما هي.
وفي عام ٢٠١٢ رجعت للكتابة فيها من دون قصد مع اندلاع الحرب في سورية وكنت كلما أغلقت صفحة قلت إنها الأخيرة ولكن لم أكن أجد نفسي إلا أكتب مجدداً إلى أن انتهيت منها وأغلقتها، وأخذت مني ٩ سنوات ولكن ليس بالنسق نفسه وهناك فترات توقف قد تصل إلى ٣ سنوات، وبنهاية عام ٢٠١٥ أعطيتها لدار النشر وكانت باسم «نور شام.. ذاكرة مدينة».

• هل تستطيع الكتابة أن تزيل حزنك؟
أعتبر أن الكتابة هي حالة حزن إذا أردنا أن نتخلص منه نشاركه مع غيرنا بعكس الفرح الذي كلما شاركنا الناس به ازداد، والكتابة هكذا هي حمولة تحتاج إلى أن نرميها على الورق.

• ما الشيء الذي دفعك لكتابة المسرحية؟
وبعد أن أعطيتها لدار النشر بشهرين بدأت فكرة كتابة مسرحية تطوف في ذهني وطبعاً بتشجيع وفكرة الزميلة مروة قرعوني وهي مخرجة أفلام قصيرة وأيضاً ممثلة، حبها للمسرح دفعها أن تخوض تلك التجربة وبسبب إصرارها كتبت المسرحية وكانت مونودراما من أصعب أنواع المسرحيات، باسم «تفل قهوة»، بما أنني تناولت المرأة وأعتبر أننا إذا أردنا معرفة رقي أي وطن يجب أن نسأل عن حال المرأة فيه وكيف تعيش ونظرة المجتمع لها، فأنا لست مع المساواة بين الرجل والمرأة فهناك مهن لا تصلح للنساء لذلك أنا مع العدالة.
وكانت فكرة كتابة المسرحية هدية جميلة من القدر، حيث تناولت فيها شيئاً يشبه روايتي عن المرأة والوطن ولكن بتفاصيل أخرى وإضافة إلى ذلك تناولت رجال الدين والسياسة والحرب، وبدأنا نعرض في بيروت، حيث كتبت عنا الصحافة اللبنانية بالمانشيت العريض «كاتب سوري يقتحم المسرح اللبناني»، واعتبرت أول كاتب سوري يكتب باللهجة اللبنانية.

• لماذا اخترت اللهجة اللبنانية في مسرحك السوري؟
المسرحية تمثل لبنان وسورية في الوقت ذاته ولا أرى أن هناك أي ضرر إذا كتبت بلهجات مختلفة لأنني كاتب ومهنتي هي اللغة، على حين الممثل إذا قلد لهجة فسيمثل ويصطنع وقد لا يستطيع أن يحيا بها في المسرح، وبرأيي إن الكاتب يستطيع أن يكتب بلهجات مختلفة.

• أين عرضت المسرحية؟
البداية كانت في لبنان وفي الحقيقة كان العرض فوق تصوراتنا حيث عدنا بإيرادات كبيرة خلال ١٥ يوم عرض. وبعدها في دمشق على مسرح القباني واشترطت على المديرية أن تكون البطاقات مجانية لأن الإنتاج كان علينا حيث عرضنا لمدة أسبوع وكان الجمهور غفيراً.
وبعده في شرم الشيخ واستمررنا في العرض مدة ١٠ أيام وتناولوا العرض في القنوات المصرية.

• هناك عمل تلفزيوني قريب؟
ربما شجعني نجاح المسرحية الأولى أن أكمل هذا الخط الذي بدأت به وكتبت عن الحب والمرأة والوطن شعراً ومسرحاً ورواية وكملته بالتلفزيون، والعمل يعتبر سلاماً لفيروز وهو عبارة عن ثنائيات وقصص حب كل قصة تحمل اسم أغنية لفيروز، وهو عمل سوري مع وجود بعض الشخصيات اللبنانية والآن هناك مفاوضات بين شركتين.

• نراك تنتقل بين الشعر والرواية والمسرح والتلفزيون، ما الشيء الذي يمثلك؟
يقول عني البعض إنني كاتب شامل وإضافة لذلك طلب مني كتابة فيلم ولكني لست متهيئاً ولا أملك الوقت الكافي وعندي التزامات مثل الزاوية الأسبوعية في موقع قناة الميادين.

• هل اتجهت للتلفزيون من أجل المردود المادي؟
الإيراد الذي أخذته من المسرح ربما أفضل من التلفزيون بالنسبة للجهد ونحن لدينا أجور الكتاب تصل إلى أقل من ١٠ بالمئة من ثمن بطل المسلسل.

> السماء في دمشق يمكن أن تكون قريبة ولكن في ضيعتي السماء واسعة أكثر

• هل تكتب من أجل اسم تبنيته أو فكرة تتبناها؟
لست منافقاً لأقول أريد أن أوصل فكرتي فقط فأنا أطمح في أن يصل اسمي لأن المشاهد يختلف بين المسرح والتلفزيون، ولا أعتمد على كتابتي كي أعيش، وإذا اضطررت في يوم من الأيام على كتابة أغنية فسأكتب ولو كان صوتي جميلاً لغنيت ما أكتبه.

• ماذا أضافت لك التجربة المسرحية؟
المسرح جعلني أفكر بصوت أعلى بكثير وهو يجعلنا نصرخ والمسرح بحد ذاته صرخة، ومن أجل ذلك انتهيت من كتابة مسرحية أخرى باسم «الله ليس في المعبد»، وسنبدأ بروفات قريباً بها، تمثيل مروة قرعوني التي تؤمن دائماً بالفكرة التي أطرحها والعرض سيكون في مسرح الحمرا أي سنعرض في دمشق قبل بيروت ونجهز لعرضها أيضاً في تونس ومصر وهي إنتاج مشترك بيني وبين مروة.

• وماذا تحضر الآن غير ذلك؟
بدأت بكتابة رواية عن الموضوع نفسه اسمها «قمح في جوار زحل» على افتراض أن آدم وحواء ما زالا على قيد الحياة يراقبان تصرفات البشرية، وأعتبر أن حوار آدم وحواء هو مونولوج الكون، أحياناً تكون نظرة آدم أعمق ببعض المواضيع وربما العكس، ومن خلال حوارهما أستطيع أن أتحدث عن أي شيء، مثل المسرح والأدب وعن رواية أحببتها وعن مدينة زرتها وأيضاً عن الدراما.

• ما طموحك اليوم وإلى ماذا تتطلع؟
طموحي ألا أفقد شهية الكتابة وأخاف من الجفاف الفكري الذي أشبهه بمرض السرطان حيث يشعر المرء بأنه بلا جناح وفي حالة شلل كامل، وأطمح في ترجمة ما أكتبه في يوم من الأيام ولو كان على نفقتي الخاصة.

• ماذا قدمت لك ضيعتك في الغوطة؟
أفخر أنني ابن ضيعة تدعى «حوش الصالحية» بالغوطة الشرقية وبالطبع أنا ممتن لضيعتي التي أصبحت اليوم خراباً، وأقول إن السماء في دمشق يمكن أن تكون قريبة ولكن في ضيعتي السماء واسعة أكثر.
وفي دمشق الأولاد يلعبون بالملاهي ويرسمون، أما في الضيعة فهم يلعبون بالطين ويتسلقون الأشجار وغيرها الكثير من التفاصيل الصغيرة، وأعتبر أن الجنون في الضيعة يكون أكبر، وأرى أن الخيال هو أبو الواقع والكتابة نوع من السعي للكمال لأننا في الورق نستطيع ألا نجامل وأن نكتب بلا كذب أو غش.

• كم أحزنك ما حدث في الغوطة؟
سورية ستقوم والسوريون شعب فتي وحالم إلى درجة لا يتخيلها العقل ربما لأن الله خلق أحلامنا خفيفة، فرغم بحر اليأس من حولنا إلا أنها بقيت تطفو.
والآن نحن نغلق ملف الحرب ونفتح ملف الإعمار ولدي رغبة كبيرة في الكتابة كي لا تتكرر هذه التجربة في أي بلد آخر.